فإنه ليس من الضروري أن يكون النقاد قد تمثلوا بعمق جل النظريات السوسيولوجية في الأدب، فلقد لاحظنا أن النقد السياسي والإديولوجي المباشر كان يكتفي أصحابه بالإعلان عن موقفهم المبدئي، دون تقديم تحليل دقيق للواقع الاجتماعي أو الفكري يُسنِدُ آراءهم، ويدعمها. كما رأينا أنهم لم يكونوا يعلنون عن منهجهم في دراسة الرواية كفن قائم بذاته، في الوقت الذي رأينا أن المنظرين الأوائل للنقد الإديولوجي في روسيا ـ ونشير هنا إلى «بليخانوف» بالخصوص ـ حاولوا على الرغم من نزعتهم السياسية الواضحة تقديم تصور لوضع الأدب ضمن البنية الفكرية بشكل عام، وعلاقة هذه البنية بالبنى الأساسية الاقتصادية، والاجتماعية(*).

وإذا كان المنظرون للنقد الاجتماعي الروائي في العالم العربي قد اهتموا بالرؤية كوسيط بين الفن الروائي والواقع، فإنهم لم يتمثلوا كثيراً من المصطلحات التي نشأت في حقل البنيوية التكوينية، وذلك لأن أغلبهم ـ وهم من الشرق العربي ـ لم يتصلوا إلا بالنقد الإنكلوسكسوني الذي لا نشك في غناه، **وإن كان ذلك (أي الغنى) قد أثر على مسألة التمييز الواضح بين المناهج النقدية، وهو أمر حرصتْ عليه المدرسة الفرنسية شديد الحرص.**

ونلاحظ أخيراً بأن النقد الروائي السوسيولوجي في العالم العربي، لم يستوعب جُلَّ المراحل التي قطعها هذا المنهج في الغرب، فتأثير سوسيولوجيا النص، كما عرضنا لها في المدخل، لا نجد له إلا ملامح عفوية، ليست لها علاقة مباشرة بالرصيد النظري لرواد هذا المنهج أمثال «باختين»، و«بيير زيما»، و«ميشال زرافا» وغيرهم. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن بعض المقالات التي نُشرت في المجلات في إطار النقد الروائي، ظهرت متأثرة بهذا الاتجاه، ونشير خاصة إلى ما كتبته الناقدة اللبنانية: يمنى العيد، وأغلب ما نشرته في هذا المجال ضمَّنته كتابها: «في معرفة النص»[66] إلى جانب مقالات أخرى في نقد الشعر والرسائل، والأهم من ذلك ما كتبته في المقدمة؛ إذ يبدو التوفيق بين البنيوية والأبحاث السوسيولوجية الهاجس الأول عندها[67]. ونعرف أن سوسيولوجيا النص قامت أساساً على الإستفادة المزدوجة من الأبحاث المادية الجدلية في الأدب، ومن أبحاث اللسانيين والبنائيين[68].

(*) أنظر ما قلناه عن بليخانوف في الجزء الثالث من القسم الأول.

(66) يُمنى العيد: في معرفة النص، انظر على الأخص دراستها لرواية السؤال لغالب هلسا، إذ تعلن منذ البداية عن علاقة النص الروائي بما هو اجتماعي. منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 1، 1983، ص 183.

(67) المرجع السابق، انظر تأثير باختين الضمني في الصفحتين 12 و13.

(68) انظر القسم الأول، وخاصة ما قلناه عن سوسيولوجيا النص الروائي.